# الفصحى وعامياتها "وجهة نظر"


## د. محمد العربي ولد خليفة

**(جامعي)**


اخترنا توصيف دكتور إدوارد سعيد المفكر والناقد الفلسطيني بجنسية أمريكية لعلاقته الشخصية باللغة العربية، وتقييمه لجانب من منتوجها الإبداعي المعاصر، ورأيه فيها وهو المتحكّم في ناصية الإنكليزية وأدبياتها، والهدف تعريف القارئ غير المتخصص بالفارق بين جيلين من المهاجرين:

يمثل الجيلّ الأولَ مبدعون أضافوا الكثير إلى جماليات العربية شعرا ونثرا، على درجة عالية من الابتكار وسحر البيان، يتقدمهم إيليا أبو ماضي وجبران خليل جبران، والأخير فنان ملهم تنقّلت ريشته من العربية إلى الإنكليزية ببراعة تنشد التفوق في اللغتين.

ويمثّل الجيلَ الثاني الفقيد إدوارد سعيد الذي يصف علاقته بالعربية بنفسه، ويقدّم في الورقة التالية نظرة نقدية للغة المطاط عند بعض تشكيلات اليسار العربي، وسبب شيوع العامية المصرية، وهو يعتبر الفصحى اللغة الأولى في العالم التي ترقى إلى مستوى الدقّة الرياضية والتجريد الذي يمتاز به جبر المنطق، وهو يتفق في هذا الرأي مع المفكّر المغربي محمد عابد الجابري؛ الذي يعطي علوم اللغة والبيان موقع الريادة في النظام المعرفي العقلاني للحضارة العربية الإسلامية.

لا يتّسع المقام في هذه الملاحظات التمهيدية لإبداء ملاحظات حول هجرة الأوطان واللسان معا، ومناقشة أسبابها الاختيارية والاضطرارية وما نسميّه اللّجوء الكوميدي لطلب النجومية لدى دور النشر، المؤطرة بخبراء يخدمون استراتيجية جيوثقافية واستقطابية، تجد منذ نجاح الزعزعة والاحتراق من الداخل للفضاء العربي الإسلامي منخرطين بحماس تحت شعارات وعناوين جذابة، لقد أصبح البعض منهم بعد سنوات قليلة من الاستخدام في بروصة العواصم الأوروبية من القلّة المحظوظة (Happy few)، مقارنة بزملائهم في داخل الأوطان.

لنرى بعد هذه الملاحظات السريعة ما يقوله الفقيد إدوارد سعيد عن علاقته بالعربية وعلاقة أهلها بها.

1 . المنطوق والمكتوب

كيف نتكلم العربية وكيف نكتبها؟ سؤال في غاية التعقيد، لكونه يتعلق بعوامل أيديولوجية لا تمتّ بصلة للواقع المعيش لهذه اللغة، ولا لمتكلّميها الأصليين، لا أدري ماهو مصدر الفكرة القائلة بأن العربية تعبر أساسا عن عنف مرعب لا يمكن تفسيره؛ ولعله بات من الواضح أنها ترجع إلى الصورة التي قدمها أولئك الممثلون من ذوي العمامات الذين ظهروا على شاشات هوليود[1] خلال الأربعينيات والخمسينيات، وهم يتكلمون إلى ضحاياهم بفظاظة شديدة فيها الكثير من السادية، هنالك أيضا الدور الذي لعبته مؤخرا

[1]- وقد شاهدنا أحدها في لندن بعد حوالي سنة من حرب رمضان (أكتوبر 73) ويحمل عنوان: الأكاذيب الحقيقية (True lies) ويقدم العرب والمسلمين في صورة وحوش تتكّل بضحاياها ثم تلعق دمها.

وسائل الإعلام الأمريكية، في ترسيخ الاقتران بين العرب والمسلمين والعنف والإرهاب، وكأن ذلك مقصور عليهم وحدهم.

رغم ذلك كلّه، فإن فنون البلاغة والفصاحة في تاريخ الأدب العربية تعود إلى ألفية خلت: فأدباء بغداد من أمثال الجاحظ والجرجاني قد أقاموا أنظمة غاية في التعقيد والحداثة، بهدف فهم البلاغة والفصاحة بمختلف تجلياتها وفنونها ولكن أعمالهم لم تعن باللغة اليومية المنطوقة، بل اقتصرت على اللغة الفصحى المكتوبة، بسبب هيمنة القرآن عليها والذي يعتبر المصدر والنموذج لكل ما جاء بعده في مضمار الإعجاز البياني.

سنتناول شرح هذه النقطة غير المألوفة لمتكلّمي اللغات الأوروبية المعاصرة التي يتماثل فيها الشفهي والكتابي، حيث فقدت النصوص المقدسة كل سلطتها الشفهية.

يتعمل العرب لهجات شفهية، تختلف كثيرا من منطقة لأخرى ومن قطر لآخر، فقد نشأت أنا مثلا وترعرعت في أحضان عائلة لغتها عبارة من مزيج من اللهجات المتداولة في كل من فلسطين ولبنان وسوريا؛ لهذه اللهجات الثلاث من الخصوصيات ما يمكّننا من التمييز مثلا بين شخص قاطن بالقدس وآخر بيروت وثالث بدمشق، غير أنه بإمكان الثلاثة التواصل دون أدنى جهد.

وبما أنني التحقت بالمدرسة في القاهرة، أين قضيت الجزء الأكبر من شبابي، فإنني كنت أُحسن أيضا اللهجة المصرية التي كان إيقاعها أكثر شرعة، ورنينها أكثر أناقة من باقي اللهجات التي تعلمتها مع عائلتي، علاوة على ذلك؛ كانت اللهجة المصرية أكثر شيوعا، لأن معظم الأفلام العربية

والمسرحيات الإذاعية، والمسلسلات التلفزيونية من إنتاج مصري؛ ولذلك أصبحت العبارات الاصطلاحية المصرية مألوفة لدى كل سكان المنطقة العربية.

حفّز الازدهار المفاجئ للنصاعة البترولية (الخليجية)، السبعينيات والثمانينّيات على إنتاج أعمال دراما تلفزيونية ولكن باللغة الفصحى هذه المرة، وقد كان من المفترض أن تلبيّ هذه الأعمال التي يبدو فيها التكلّف رغبة وأذواق المشاهدين، لولا أن الممثلين يظهرون وكأنّهم متنكرين في أزياء غير أزياء عصرهم، ولا تلقى تجاوبا حتى لدى المسلمين والمسيحيين المحافظين الأكثر تزمّتا، وكل المشاهدين الذين لم يستسيغوا الأفلام القاهرية البديعة فهذه الأعمال الدرامية كانت تبدو لنا مملّة جدّا، أمّا المسلسلات المصرية فقد كانت تجلب لنا متعة كبيرة، أكثر من أجود من أي عمل درامي باللغة الفصحى، على الرغم من تحضيرها على وجه السّرعة لأغراض تجاريّة.

ومن بين جميع اللهجات فإن اللهجة المصرية هي الوحيدة التي عرفت الانتشار الواسع؛ إن استيعاب ما يقوله جزائري سيكون بالنسبة لي من الصعوبة بمكان، بسبب الفروق الشّاسعة بين لهجات المشرق ولهجات المغرب، سأجد نفس الصعوبة مع شخص عراقي، أو مع خليجيّ حادّ اللكنة؛ الأمر الذي أدّى إلى وجوب استعمال لغة عربية عصرية مع إدخال بعض التغييرات عليها، لتلائم نشر المعلومات الإذاعية والتلفزيونية، لكي تفهم عبر كل أرجاء المنطقة العربية من المحيط إلى الخليج، سواء تعلق الأمر بالنقاشات أم بالأشرطة الوثائقية أم بالاجتماعات أم بالحلقات الدراسية؛ وخطب المساجد التي تنقل

فيها الأحاديث الموجهة إلى المواطنين من لهجاتهم المتباينة أحيانا في البلد الواحد إلى فُصحى مبسّطة.

2 . لغة كلّ ما فيها واضح، منطقيّ ومجرّد

بقيت العربية الفصحى غنيّة وحية في آن معا، وهي لغة الكتابة والتعبير الشفهي، على العكس من اللّغة اللاّتينية التي انسحبت من الحياة اليومية ومن كل مجالات الإبداع، وعوّضتها اللّهجات الأروبية المتفرّعة عنها، ولم ترق إلى مستوى العربية الفصحى أيّة لهجة عامية، وباستثناء الدارجة المصرية فإنّ كل العاميات الأخرى لم تتجاوز حدودها القطريّة، وأحيانا نواحي جزئيّة من القطر نفسه، ولا يملك أيّ منها تراثا علميا وأدبيا يضاهي ما تزخر به الفصحى عبر تاريخها الطويل، ولو تتوصّل إلى درجة لغة التواصل العابر للحدود، مثل لغة الموانى الهجينة المعروفة باسم لينغوا فرانكا Lingua Franca التي شاعت على شواطئ المتوسّط في العهد العثماني.

إذا ما نظرنا إلى الموضوع من وجهة نظر عملية فإننا سوف نلاحظ أنّ لدى الشخص المتعلّم استعمالين مختلفين للغة؛ لدرجة أنه خلال محادثة، مع مراسل صحفي لجريد أو محطّة تلفزيونية، فإنه خارج الميكرفون والكاميرا، ستحدث بالعامية؛ وفجأة ودون سابق إنذار ومع انطلاق التسجيل ينتقل لاستعمال الفصحى، التي تعتبر مرتبة أرقى في التعبير وأكثر أناقة.

هنالك طبعا ما يربط بين الاثنتين، حيث لا اختلاف بين الأحرف وترتيب الكلمات، ولكن الاختلاف يكمن في المصطلحات وطريقة النطق؛ فالعربية الفصحى المعيارية/العصرية تمحو أيّ أثر للهجات المحلية؛ وأكثر من

ذلك فهي تبدو على أنها أداة صوتية شديدة المرونة تم تنظيمها بدقة متناهية، كما أنها غنية بصيغها النحوية التي تضفي على أسلوبها بلاغة رائعة فلا مثيل للفصحى بين اللغات إذا ما استعملت استعمالا سلينا، لكونها تتميز بالدقة الشبيهة بالرياضيات والمطاوعة غير المحدودة للتعبير على أشياء مختلفة، بتبديل بسيط لحرف أو لحركة في كلمة ما خاصّة في آخرها.

إنها تمثل أيضا لغة مركزية لا تُضاهي بالنسبة للثقافة العربية، مثلما أوضح يارسلوف ستيكيفتش (jarosay Stekevych)، الذي خصّص لها أحسن كتاب معاصر يقوم فيه:

"لقد ولدت مثل "فينوس (Venus) الزهرة بجمال تام، وقد استطاعت أن تحافظ على هذا الحمال، بالرغم من التغيرات التاريخية، فكانت أقوى من الزّمن".

تفترض دراسة الطالب الأجنبي لهذه اللغة تمتُّعه بحاسة رياضية، أقرب إلى المنطق التجريدي، فنظام الصّوامت الجذرية الثلاث( trois consonnes radicalaires) الخالية من النقائص والصيغ المشتقّة للأفعال ومعانيها الأصلية ودقّة أسماء الأفعال...كلّ صغيرة فيها تنمّ عن الدقة والوضوح والعقلانية التي تسودها، وعن روح التنظيم والتجريد التي تطغى عليها"، ولكنها أيضا تحفة تسرّ الناظرين من حيث كتابتها؛ مما وهب لفنّ الخطّ calligraphy دوره المهم الذي لم يزل على مرّ القرون، نموذجا تركيبيا غاية في التعقيد، لكونه أقرب غلى فن الرسم والزخرفة منه إلى الكتابة.

عرضت قناة الجزيرة الفضائية خلال الأيام الأولى من الحرب على أفغانستان، نقاشات وتحقيقات صحفية تفوقت على القنوات الأمريكية الغريب في الأمر . إذا استثنينا قضية محتوى هذه البرامج .كان المستوى البلاغي الرّفيع للمتدخلّين، بما في ذلك الأكثر إثارة للاشمئزاز، مثل خطابات الشيخ أسامة بن لادن، على الرغم من صعوبة وتعقيد القضايا التي كانت موضوع نقاش فقد تحدّث بن لادن بنبرة ناعمة غير متردّدة ودون ارتكاب أي خطإ مما زاد بالتأكيد من قوة تأثيره كذلك كان الأمر، ولكن بدرجة أقل بالنسبة لغير العرب أمثال الأفغانيين، كبرهان الدين ربّاني، وحكمت غولبنديار، اللذين لا يحسنان العامية، وعبّرا بالعربيّة الفصحى بطلاقة ومهارة فائقتين.

ومن المؤكد أن اللغة التي نطلق عليها في أيامنا هذه اسم العربية العصرية المعيارية ليست مطابقة للغة التي نزل بها القرآن منذ أربعة عشر قرناً خلت.

إن اللغة العربية الفصحى الحديثة هي نتاج عملية بدأت خلال العشريات الأخيرة من القرن التاسع عشر، أي خلال عصر النهضة، وتمّت على يد روّاد من السوريين واللبنانيين والفلسطينيين والمصريين، من بينهم عدد كبير من المسيحيين الذين أنكبّوا على تحويل اللغة العربية ، عن طريق تعديل وتبسيط جزئي للنحو العربي للقرن السابع، عبر ما يسمى بالتعريب؛ أي إدخال كلمات لم تكن موجودة في اللغة العربية من قبل، مثل: قطار، ديمقراطية، اشتراكية..الخ؛ كيف؟ عن طريق التنقيب في التراث الثري للغة باستخدام تقنية القياس فهؤلاء الرواد أدخلوا مجموعة كبير من المفردات تشكل حوالي 60% من اللغة العربية الحديثة؛ مما يدفعنا غلى القول بان النهضة

حرّرت اللغة من النصّ الديني، وأضفت عليه نوعا من الدنيوية، خلسة، جعلته يختف عماّ كان يتكلمه ويكتبه العرب القدماء.

إنّ النحو العربي على درجة من التطور والوضوح، حتى أنّ تلميذا في المراحل الأولى من العمر يستطيع دراسته بسهولة، لأن بإمكانه تذوق دقائقه وفهم منطقة؛ وتوفّر معاهد الألسن في كل من مصلا وتونس وسوريا ولبنان أفضل تعليم للغة العربية لغير الناطقين بها.

عندما اندلع حرب 67 بين العرب وإسرائيل، واضطررت للانضمام سياسيا من بعيد لهذه الموجة، راعني أنّ كل أمور السياسية كانت تتم بالعربية الفصحى وليس بالعامية، وقد اكتشفت بعد ذلك بقليل، أنّ التحاليل السياسية التي كانت تقدّم خلال الاجتماعات بالفصحى إنما كانت تهدف لإظهار الأمور بمظهر أكثر عمقا ممّا كانت عليه في حقيقة الأمر اكتشفت وواخيبتاه، أنّ ما استنتجته كان صحيحا، لا سيما إذا ما تعلّق الأمر باقتباس مفردات الماركسيّين والحركات التحريرية الأخرى في ذلك الوقت، من وصف للطّبقات الاجتماعية، والمصالح المادية، ورأس المال، والحركات العمّالية، جمل نمطيّة تّم تعريبها وتداولها في شكل مونولوجات (monologues)، ليس إلى الشعوب، بل لمناضلين آخرين مزيّفين أمثالهم ولذلك فإنّ زعماء شعبيين مثل ياسر عرفات وجمال عبد الناصر الّلذين كانت لي معهما لقاءات في عّدة مناسبات، أتقنوا العامية أحسن من الماركسيين المتعلّمين.

كان المرحوم عبد الناصر على وجه الخصوص خطيبا لامعا، فهو يتحدّث بالعامية إلى الجماهير الشعبية، مع استعمال بعض الجمل الفصحى

المختارة؛ أمّا عرفات، وإذا ما أخذنا في الحسبان فكرة أنّ الفصاحة العربية تعتمد كثرا على الإيقاع السمعي، وبهذا المقياس يعتبر خطيبا فوق المتوسّط، بسبب ما يرد على لسانه من أخطاء في نطق بعض الكلمات، واستعمال الجمل التي تحتمل أكثر من معنى، وما يشوب أسلوبه من تردّد، بحيث يرى العارفون أنه أشبه بفيل داخل بيت من زجاج.

3 . إعجاز جامع الأزهر بالقاهرة واحدا من أقدم مؤسسات التعليم العالي في العالم، وهو يمثّل أحد مجامع الإسلام المحافظ، أمّا مديره فهو أعلى سلطة دينية في مصر السّنية فهو يقوم أساسا بتدريس العلوم الإسلامية والتي يعتبر القرآن قلبها النابض، ويولي عناية كبيرة بكلّ ما يتعلّق بتلك العلوم من مناهج ومدارس التفسير وأمور القضاء ودراسة الأحاديث النبوية وقضايا اللغة والنحو؛ ولكن مهامه لا تقف عند ذلك فحسب، فلا سبيل لفهم ذاك التراث الزاخر دون التمكّن من أداته المثلى والغوص في مكنوناتها، ولذلك فإنّ إتقان الفصحى يحتلّ مكانة هامة في تدريس العلوم الشرعية في الأزهر، بالنسبة للعرب وغيرهم من المسلمين، لكونهم يأخذون القرآن على أنخ كلام الله المنّزل عن طريق الإيحاء به إلى محمد صلي عليه وسلم وعليه، فإنّ لغة القرآن مقدّسة، تضمّ قوانين يجب التقيّد بها، ونماذج لامناص من أتباعها، رغم أنهم لا يستطيعون الإتيان بمثلها، فالهدف مطلوب ولكنه لا يدرك.

قبل ستين سنة خلت، كنّا نستمع إلى الخطباء ونعلّق مطوّلا على الأخطاء التي كانوا يرتكبونها ولكن عندما ألقيت خطبتي الأولى باللغة العربية منذ حوالي عشرين سنة بالقاهرة، اقترب منّي على إثرها أحد أقاربي وكان شابا

وأعرب عن مدى خيبته، لكوني لم أكن بليغا في خطابي فأجبته متأسفّا: "ولكني أظنكم فهمتم ما كنت أرمي إليه !!" فقد كان هدفي الوحيد أن أكون واضحا فيما يخصّ بعض النقاط الشّائكة في السياسة والفلسفة لم يقتنع محدّثي بالجواب وردّ قائلا: "ولكنك لم تكن خطيبا ولا بليغ بما يكفي".

ظلّت هذه الحادثة راسخة في ذهني كلّما تكلّمت في حشد من الناس، فأنا عاجز عن التحوّل غلى خطيب بليغ، لأنّي كثيرا ما أمزج بين التعابير العاميّة والفصحى بطريقة عملية، أما النتائج فغالبا ما تكون لغة عربية متوسّطة، وقد قدّم لي زملاء آخرون من الأدباء والنقاد هذه الملاحظة الظريفة، قائلين بأنّي أشبه بشخص يملك سيارة رولز وريس (فلسفة وتجربة أكاديمية)، ولكنه يفضّل استخدام سيارة فولكس فاغن (تعبير شعبي مبسط).

اكتشفت أخيرا وبعد عشر أو خمسة عشرة سنة بأنّ المقاطع الأدبية العربية الأكثر تأثيرا وروعة التي استمعت إليها أو قرأتها لم تكن لأي من المختصين في النقد الأدبي، بل كنت لأدباء من أمثال الياس خوري، وجمال الغيطاني، أو لواحد من أهمّ شاعرين عربيين مازالا على قيد الحياة وهما: أدونيس، ومحمود درويش، فكلّ منهما يبلغ في أشعاره درجة من الجمال والرونق تفوق الخيال، وتغرق الجماهير العريضة في حالة من الهيام والنّشوة والهيجان؛ لأنّ الأدب يمثّل بالنسبة لهم أداة ارسطيّة أشبه بالسيّف في حدّتها إنّهم يوظفون اللغة بمستوى عال من البلاغة والسلاسة.

قدم أولئك الموهوبون عطاءات رائعة، واستطاعوا الجمع بين القدرة الإبداعية والبساطة والوضوح، بعيدا عن التقعّر المتعب، والاستعراضات اللّفظية الجوفاء.

أمّا بالنسبة لي، ولأنني لست بنتاج نظام مدرسّي وطني وعربي فقد تعلّمت في معاهد النظام الكولونيالي، فينبغي عليّ دوما بذل مجهود كبير لبناء جملة مفيدة بالفصحى، كما أنّ عليّ الاعتراف بأنّ النتائج ليست دوما مقنعة من وجهة النظر البلاغية.[2]

* العنوان العام والعناوين الفرعية من اقتراحنا والترجمة بتصرف.